العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

أ. د. جمعة مصطفى الفيتوري
كلية الآداب والعلوم - زليتن

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام الأطيبان الأكملان الأزكيان على أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

وبعد...

يعتبر الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي من رواد علماء الغرب الإسلامي خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين الذين ساهموا في بناء لبنات الفكر العربي الإسلامي خاصة والإنساني عامة، ومن تلك المساهمات

التي أسهم بها اليوسي في بناء العقل العربي الإسلامي مساهماته الصوفية.

لقد جاءت أفكاره الصوفية في ثنايا كتبه كالمحاضرات[1]، والفهرسة[2]، والقانون[3]، والحاشية على العمدة[4]، ورسائله الصوفية.

إنه عالم موسوعي لم يترك مجالاً في الفكر الإنساني إلا وكتب فيه، له مؤلفات في اللغة العربية وآدابها. والفقه وأصوله، وعلم الكلام والتصوف والتفسير.

ودون أن أطيل على القارئ الفاضل فإني أسمح له بالدخول مباشرة إلى قراءة ما قاله الشيخ اليوسي عن التصوف.

المبحث الأول: ماهية التصوف، وتاريخه، وأهميته

معنى علم التصوف عند اليوسي هو النظر «في استنباط الأحكام الباطنة، مما يرجع إلى استصلاح القلب بتخليته من الصفات المذمومات، وتحليته بالصفات المحمودات، ليستعد للمواهب والتجليات، ومراعات آداب الأوقات، فما أخذ من ذلك مع ما أخذ من السنة هو علم التصوف»[5].

أما الطريقة الصوفية فإنها «العمل لله بما يرضي من حيث يرضى»[6] وجعلها «ثمرة العلم ولبابه، وأحد ركني الدين، فإن الشريعة لها ظاهرة وهو

---

(1) هو كتاب المحاضرات في اللغة والأدب. قام بتحقيقه الدكتور محمد حجي وأحمد إقبال، ونشرته دار الغرب الإسلامي.

(2) وهو كتاب يتناول المشايخ الذين درس عنهم اليوسي. وقام المؤلف بتحقيق هذا الكتاب وهو تحت الطبع.

(3) وهو كتاب القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم. وقام الباحث بدراسته وتحقيقه بالتعاون مع الأستاذ محمد الخرباوي.

(4) وهو كتاب الحاشية على عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد، وقام الباحث بدراسة وتحقيق هذا الكتاب.

(5) الفهرسة مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1234ك ضمن مجموع 103 إلى 147. ص16. وقام المؤلف بتحقيق هذا الكتاب وهو تحت الطبع.

(6) المصدر السابق، ص16.

للفقهاء، وباطن وهو للصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معاً، ولهذا يقال من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، فمن أنكر هذا. . . فقد أنكر الشريعة»[7].

والتصوف عنده يتكون من ثلاثة عناصر، العنصر العقدي، وعنصر الأحكام الشرعية، وعنصر الأدب، يقول بشأن ذلك: «وعليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا بعقولكم، وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب، وعليكم بالصدق والمحبة فيهم، فقد قالوا شروط الفقير ثلاثة: الصدق، والأدب، والتعطش، وقالوا: اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً، وقالوا: التصوف كله أدب»[8].

إن الصوفي عند اليوسي هو الذي يهتم «بالأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة من حيث طلب الكمال، وإقامة العبودية لحق الربوبية»[9].

تاريخ التصوف

يرى اليوسي أن التصوف لم يظهر «إلا بعد مضي الصدر الأول، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على بصيرة من أمرهم، ويقين من ربهم، وثبات في دينهم، ولم يكن أشرف من وصف الصحبة لهم فوصفوا به، ثم التابعون كذلك على أثرهم، فلما ذهب المشاهدون لنور النبوءة، والشاهدون

(7) اليوسي، رسالة جواب الكتاب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2753د. ص62. تتناول هذه الرسالة الردود عن الأسئلة التي أرسلها السلطان إسماعيل إلى الشيخ اليوسي.

(8) اليوسي رسالة إلى بلد أهل كارت (قرية مغربية) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 302ق. ص347. هذه الرسالة بعث بها الشيخ اليوسي إلى فقراء كارت يرشدهم إلى الطريق القويم في العقائد والمعاملات.

(9) اليوسي، القانون في أحكام العلم والعالم والمتعلم، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2382د. ص34. وقام الباحث بالتعاون مع الأستاذ محمد الخرباوي بدراسته وتحقيقه وهو تحت الطبع.

لمن شاهده، كرت على الناس بزخارفها، وأجلب عليهم الشيطان بخيله ورجله، فداخلت القلوب الشهوات والغفلات، وكثرة الهفوات والرعونات، فانفرد أقوام أحيى الله قلوبهم بنور الإيمان، وعصمهم من الدنيا والشيطان، بالدؤوب على سنن النبي ﷺ، وسنن أصحابه من المحافظة على التقوى، ومداومة الرعوى وترك الدعوى، والإعراض عن الدنيا، وطلب رضى المولى وهم الصوفيه»[10].

ويعلل اليوسي سبب تسمية المتصوفة بذلك الاسم بقوله: «سموا به نسبة إلى الصوف، وهو زيهم غالباً، آثروه تواضعاً وتقللاً من الدنيا، واتباعاً للسلف. أو إلى الصوفية الملقاة في الطريق، لأنهم يؤثرون التواضع والذلة، وسقوط القدر مثلها. أو إلى صوفة القفا للينها، فإن المؤمن هين لين. أو إلى صوفة قبيلة كانوا يجيزون الحاج في منى[11] لاختصاصهم بالمزية والزي. والنسبة في الكل على القياس. وعلى الأول يقال تصوف إذا لبس الصوف. كما يقال تقمص إذا لبس القميص وقيل إلى الصُفّه[12] بضم الأول وتشديد الثاني. وهي مظلة في المسجد النبوي كانت مأوى الفقراء المتجردين، وهم هم. غير أنهم إذ ذاك لا يسمون بهم كما مر والتغيير في النسب لا بأس به. غير أنه لو كان منه لقيل تصفّف ـ كما يقال تمعدد، إذا اعتدى لمعدّ[13]، وقيل من الصفا لأنه مقامهم، والاشتقاق لا يساعده، ولا حجر في الأسامي»[14].

---

(10) القانونو ص43.

(11) منى، بلدة تقع بين مكة والمزدلفة. وبها مسجد الخيف، سميت منى لما يُمنى فيها من الدعاء. وبها ترمى الجمرات الثلاث، العقبه والوسطى والصغرى. ومن السنة التوجه إليها يوم التروية (ثامن ذي الحجة) والبيات به واجب في الليالي الثلاث أو ليلتي حادي عشر وثاني عشر وعند الأئمة الثلاث إلا الأحناف فالبيات عندهم سنة، فقه السنة، السيد سابق، ص605 ـ 622.

(12) الصفة، أهل الصفة قدوة المتجردين من الفقراء الزهاد. عاشوا زمن الرسول ﷺ. وعددهم سبعون ذكرهم أبو نعيم، حلية الأولياء 1/ 337.

(13) معدّ، هو ابن عدنان وأبو أياد ونزار وقنص وأنمار. كان أميراً للعرب على مكة. انظر حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، 1/ 12.

(14) القانون، ص44.

أخذ اليوسي يعرض لنا آراء المتصوفة في علم التصوف، حيث عبر كل متصوف عن رأيه بما يوافق مقامه، يقول بشأن ذلك: «وحقيقته تظهر مما قررنا في أوصاف أهله، ولكن لاختلاف مشارب أهله وتعبير جلهم بلسان المعرفة المختصة بالجزئيات، لا بلسان العلم الضابط للقوانين، عبّر عنه كلٌّ بما يوافق مقامه. فقيل: (التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به). وهو المنسوب إلى الشيخ أبي القاسم الجنيد[15] رضي الله عنه. ومعناه استقامة العبودية، بأن يفنى مراد العبد في مراد ربه، وعلمه في علمه، حتى لا يبقى إلا عبودية تعلقت بربوبية، وربوبية تولت عبودية، وهذا مقام رفيع، وهو الذي طلبه أبو يزيد[16] حيث قال: (أريد أن أريد) وقيل: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد وهو الأول. وقيل: التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت). وقال سهل بن عبد الله الصوفي[17]: (من صفا من الكدار وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله تعالى عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر). وقيل: (هو تجريد القلب إلى الله واحتقار ما سواه)[18]. وقيل: (صدق التوجه

---

(15) أبو القاسم الجنيد: هو الجنيد بن محمد الجنيد البغدادي الخراز (ت عام 297هـ = 910م) صوفي من العلماء بالدين، أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، وشيخ مذهب التصوف، انظر ترجمته عند الزركلي، الأعلام 2/ 141. أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء 10/ 255. ابن خلكان، وفيات الأعيان 1/ 117.

(16) أبو يزيد هو طيفور بن عيسى البسطامي. زاهد مشهور. نسبته إلى بسطام بين خرسان والعراق. ترجمته عند طبقات الصوفية 67: 74. وفيات الأعيان 1/ 240. حلية الأولياء 10/ 33. والطبقات المسماة بلوائح الأنوار في طبقات الأخيار لعبد الوهاب الشعراني 1/ 65 الأعلام للزركلي 3/ 143.

(17) سهل بن عبد الله الصوفي بن يونس التستري (200 ـ 283هـ = 815 ـ 896م) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص، والرضيات، وعيوب الأفعال. له كتاب «رقاق المحبين» وله تفسير القرآن الكريم مطبوع تحت عنوان تفسير القرآن العظيم يغلب عليه التفسير الإشاري، ترجمته عند: طبقات الصوفية 206، وحلية الأولياء 10/ 189، طبقات الأخيار للشعراني 1/ 66. والأعلام للزركلي 3/ 143.

(18) نسبها للغزالي، وشرحها حمدون بن الحاج في كتابه الأزهار الطيبة فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادئ العشر. طبعة حجرية بفاس 1317هـ. رقمها 363 بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان.

إلى الله بما يرضي من حيث يرضى. فلكلٍّ من أعطى نصيباً من التوجه نصيب من التصوف)[19]. ويسترسل اليوسي في كلامه، ويوضح لنا بأن تصوف الصوفي يستند إلى توجيهاته الفكرية (الإيديولوجية) إن صح التعبير، يقول بشأن ذلك: «غير أنه لتعدد الوجه تعدد التوجه وتنوع، فكان لكلٍّ تصرف بحسب توجهه، وتعريف يليق به، فقد يغلب على الإنسان مباشرة الأعمال الصالحات قولاً وفعلاً، وهو العابد، وقد يغلب عليه ترك الدنيا وملاذها وتنظيف الذيل منها وهو الزاهد. وقد يغلب عليه ما مر من العبودية، والقيام بين يدي الله بلا علاقة وهو العارف ولا بد من إنصاف كل واحد بما لا بد منه من العبودية، والقيام بين يدي الله بلا علاقة وهو العارف، ولا بد من اتصاف كل واحد بما لا بد منه من وصف لآخر، وإلا لم يعتبر. ولكل واحد مجاهدة وسلوك في بابه، وبداية ونهاية»[20].

ويرى اليوسي بأن التصوف لا بد له من أساس يقول عليه، وفكر ينطلق منه، وهما العلم والعمل مع موهبة، يقول بشأن ذلك: «الطريق كلها في الجملة علم وعمل ثم موهبة فأما العلم فثلاث:

أولها: علم أصول الدين، وهو تصحيح العقيدة على طريقة السنة رضوان الله عليهم. إما بالنظر إن أمكن وهو الأكمل ويكفي بالجملة، وإما بالتقليد.

الثانية: علم الفقه بأن يعرف ما يلزمه في خاصة نفسه من العبادات وأحكامها، ومن معاملة يتعاطاها أخذاً من الكتاب والسنة، وسائر أدلة الشريعة، إن كانت له أهلية، أو من أفواه الفقهاء الذين هم أهل القدوة. ثم كلما نزلت به نازلة لا يعرف حكمها نظر فيها أو سأل عنها.

الثالثة: علم الباطن، بأن يعرف ما يلزمه في توجهه من الإخلاص،

(19) القانون، ص44.

(20) المصدر السابق، ص44.

والاتصاف بمحامد الصفات، والتخلي عن مذامها، وما يتبع ذلك من الآداب، في كل حركة وسكون، وقول وفعل، ونية واعتقاد. وهي كثيرة حتى قال أبو حفص[21]: (التصوف كله أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول، انتهى).

وقال أبو علي[22]: (ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب، انتهى)[23].

ويوضح لنا اليوسي بأن التصوف مصدره الكتاب والسنة. ومن كتب الأئمة، وأفواه المؤدبين وسيرهم، وهذا كله يكتمل في صحبة شيخ أو أخ صالح. يقول بشأن ذلك: (وهذا القسم الثالث ـ يعني التصوف ـ يؤخذ من الكتاب والسنة، ومعظمه في شعب الإيمان من كتب أئمة الطريق، ومن أفواه المؤدبين وحركاتهم وسيرهم. ومن يحتاج من طلب ذروة الكمال إلى صحبة مؤدب، وهو شيخ ناصح، أو أخ صالح)[24].

ذلكم كله هو العلم، أما العمل فيتمثل في امتثال الأوامر القرآنية واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً، ويتم ذلك بالتوبة أولاً؛ يقول اليوسي بشأن ذلك: «أما العمل فهو مباشرة ما اقتضاه العلم من امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات

---

(21) أبو حفص: هو عمر بن سلمة النيسابوري الحداد. (توفي عام 270 أو 267هـ) زاهد صالح، وقولته في طبقات الصوفية ص119. وانظر ترجمته عند حلية الأولياء 10/ 229 ـ 230. وطبقات الشعراني 1/ 96. والرسالة القشيرية 22.

(22) أبو علي لعله الحسن بن علي بن محمد النيسابوري الشافعي: صوفي وفقيه أصولي، توفي في ذي الحجة عام (405هـ = 1015م) من آثاره كتاب الضحايا. ط. ترجمته عند ابن العماد شذرات الذهب 3/ 180 ـ 181. كشف الظنون، حاجي خليفة، 434، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة 3/ 261.

(23) القانون، ص44.

(24) المصدر السابق، ص45.

ظاهراً وباطناً. وأول ذلك التوبة بالإقلاع عن كل مذموم شرعاً، والاشتغال بكل محمود، وتدارك ما يمكن تداركه مما فات من حقوق الله، كالصلوات والصيام والنذور. وكفارة الأيمان المفرط فيها، ونحو ذلك. أو حقوق العباد من المظالم المالية أو العرضية مثلاً، ثم الإكباب على طاعة الله»[25].

ويوضح لنا اليوسي طرق التقرب إلى الله تعالى فيقول: «فمن كانت همته في العبادة امتثالاً لأمر الله، وقياماً بحق ربوبيته وهو الأكمل. أو رجاء لموعد الثواب أو خوفاً من العقاب ولا بد معهما أيضاً من نية الامتثال، المصححة للقربة، المخرجة عن شرك الأغراض، اشتغل بها، وهي أنواع: إما الماء والسجادة، وإما الذكر، وإما جهاد العدو، وإما خدمة الإخوان وإما تعلم وغير ذلك. ومن كانت همته في الزهد والتقشف وقطع حبال الدنيا اشتغل به. ولا بد له من عبادة على قدره. ومن كانت همته في حصول المعرفة، والوصول إلى الإرادة، ولا يخالفه في جليل ولا حقير. وكان لهم في تسليك المريد ثلاث طرق: الأولى: طريق من يرى القلوب كالمعادن، فيجتهد في تميز عيوبها، ثم يسعى في إزالتها، ليقع الاتصاف بالكمالات أضدادها. والشيخ فيها للمريد كالطبيب للمريض، لا بد أن يعرف المرض أولاً، ويعرف الدواء، ثم يحمله عليه ليذهب المرض بإذن الله، وتجيء الصحة وهي طريق التخلية بالرياضة.

الثانية: طريق من يراها كالأواني، فيجتهد في غسلها إن تلوثت، وفي تفريغها مما غمرت به إن كان لا يرضى، ثم يسعى في عمارتها وهو في معنى الأول. الثالثة: طريقة من يراها كالأرضين. منها ما يصلح للزراعة، ومنها ما يصلح لإمساك الماء، ومنها ما لا يصلح لشيء، كما في الحديث، لما رآه منها صالحاً للزراعة، زرع فيه النوع اللائق به، من الأذكار وصنوف العبادات، ثم يراعى تنقية ذلك مما يعرض من شوك الرياء والعجب وسائر المذمومات ويتوجه

(25) المصدر السابق، ص45.

إلى الله تعالى، في الإصلاح والتنمية بإنزال المطر، وهو المدد الرباني، وهذه أسهل الطرق وأقربها وأنعمها، فإن المريد فيها متنعم بالله تعالى، من أول قدم لرجوعه إليه في كل حال، وهي أقرب إلى تربية السلف. وإن لم يظفر به، فليتوجه إلى الله تعالى، وليعبده مخلصاً له الدين، وليشتغل بالمجاهدة فقد قيل: (الإرادة استدامة الكد، والراحة من وراء الصراط). وليحذر من عوائق، فقد قيل: أعداؤك أربعة: الدنيا وسلاحها لقاء الخلق، وسجنها العزلة. والنفس وسلاحها النوم، وسجنها السهر. والشيطان وسلاحه الشبع وسجنه الجوع. والهوى وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت؛ وهذه الأربعة أعني العزلة، والصمت، والجوع، والسهر بها صار الأبدال أبدالاً. وأما الموهبة فهي ما يمنحه الله تعالى من العلوم اللدنية والأحوال المرضية، وفي الحديث «من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم»[26]. ويجب أن يكون المطلوب هو الله تعالى في كل وجهة، والاعتماد عليه في كل حركة وسكون، والتبري من الحول والقوة، في كل إيراد وإصدار، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والتزام المحبة، والاتصاف بالرحمة، وحفظ الحرمة، ورفع الهمة، والله المبلغ»[27].

فائدة علم التصوف

يرى اليوسي بأن علم التصوف والأحوال فائدته «تحقيق العبودية والنظر في وجه تعظيم الربوبية بإقامة الحقوق والإعراض بالحق عن كل مخلوق»[28].

وحكم اليوسي على الذي اعتبر التصوف نجاسة بأنه ناكر الشريعة، يقول

---

(26) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه. انظر المعنى عن محل الأسفار لزيد الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى عام 806هـ، بهامش إحياء علوم الدين للغزالي 1/ 71. وفي 3/ 32 رواية ورثه بدل أورثه.

(27) القانون، ص45 ـ 46.

(28) القانون، ص116.

بشأن ذلك: «فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلاً في حزب الشيطان فقد أنكر الشريعة»[29].

واعتبر التصوف خاصًا بالقلوب، يقول بشأن ذلك: «العلوم ثلاثة: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وعلم التصوف للجنان، وما سواه فضول أو هذيان»[30].

الكتب التي تجزئ للمتصوف

لقد أوجب اليوسي على المتصوف أن يكون مطلعاً على كتب أهل العلم في مجال التصوف، ويقترح عليه بعض تلك الكتب «وأقل ما يجزئ فيه ببداية الهداية للغزالي[31]. وأوسطه منهاجه، أو بعض المحاسبي[32]، وأعلاه كتاب ابن عطاء الله[33]، ومن نحا نحوها. فأما كتب الحاتمي[34] وابن سبعين[35] وابن

(29) رسالة جواب الكتاب، ص62.

(30) الفهرسة، ص1.

(31) الغزالي، هو محمد بن محمد الطوسي أبو حامد، حجة الإسلام. (450 ـ 505هـ =1058 ـ 1111م) فقيه ـ فيلسوف ـ متصوف له نحو مائتي كتاب، أبرزها إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، المستصفى في علم الأصول، معيار العلم. ترجمته عند الزركلي، الأعلام 7/ 22.

(32) المحاسبي الحارث بن أسد (ت243هـ = 857م) من أكابر الصوفية. عالم بالأصول والمعاملات والوعظ. له مؤلفات في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، من مصنفاته/ آداب النفوس، شرح المعرفة لرعاية حقوق الله عز وجل. ترجمته عند عبد الرحمن السلمي طبقات الصوفية، الأصفهاني، حلية الأولياء 10/ 73.

(33) ابن عطاء الله أحمد بن محمد الإسكندراني (ت709هـ = 1309م) متصوف شاذلي من العلماء. كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. من مؤلفاته: الحكم العطائية، لطائف المنن، التحرير والتنوير، ترجمته في الدرر الكامنة 1/ 273. الرحلة العياشية 1/ 257. دائرة المعارف الإسلامية 1/ 240. معجم المطبوعات 184.

(34) الحاتمي، ابن العربي محمد بن علي (ت560 ـ 638هـ = 1156 ـ 1240م) من أئمة المتكلمين في كل علم. وله نحو 400 كتاب ورسالة منها؛ الفتوحات المكية، فصوص الحكم، ترجمته عند ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان 5/ 311.

(35) ابن سبعين عبد الحق إبراهيم (613 ـ 669هـ = 1165 ـ 1270م) من زهاد الفلاسفة ومن القائلين بوحدة الوجود. من مصنفاته: الحروف الوضعية في الصور الفلكية، شرح كتاب إدريس عليه السلام. ترجمته عند المقري، نفح الطيب 1/ 421. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 7/ 232. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان 3/ 392.

الفارض[36] وأبي العباس[37] والبوني[38]، ومن جرى مجراهم.

فلها رجال لهم في الحقائق مجال وعندهم في التمييز مقال

فلا يشتغل بها في البداية إلا غوى، ولا في النهاية إلا خلى، ولا في الوسط إلا ذكي، يأخذ بما بان رشده، ويسلم ما وراء ذلك من آفاته. وما هو إلا كما قال بعضهم في ترجمة من كتاب له: بحر طامس يحتاج لبحري غاطس.

وقد أولع به قوم فضلوا وأضلوا وفارقوا العمل بما توصموا فزلوا

وربما ادعوا ما فهموه أو تسموه حالا لأنفسهم فافتصحوا بشواهد الأحوال كما قيل:

من تخلق بحلية ليس فيها فضحته شواهد الامتحان

أعاذنا الله من البلاء بمنّه وكرمه»[39].

المبحث الثاني: المبادئ الأساسية للتصوف عند اليوسي

وضع اليوسي شروطاً أربعة لمن أراد الدخول في الطريقة نفردها في:

1 ـ تصحيح العقيدة:

كانت ولا تزال عقيدة الإمام الأشعري هي السائدة في المغرب، ولذلك

(36) ابن الفارض عمر بن علي (576 ـ 632هـ = 1811 ـ 1235م) أشهر المتصوفين، في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة الوجود» له ديوان شعر مطبوع. ترجمته عند ابن خلكان. وفيات الأعيان 1/ 282. ولمحمد مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي.

(37) أبو العباس السبتي أحمد بن جعفر (524 ـ 601هـ = 1129 ـ 1204م) من رجال التصوف بالمغرب الأقصى، وهو صاحب الطريقة السبتية، دفن بمراكش.

(38) البوني أحمد بن علي (ت622هـ = 1225م) متصوف، مغربي الأصل، صاحب المصنفات في علم الحروف، له شمس المعارف الكبرى شرح اسم الله الأعظم. ترجمته عند يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، 1/ 314. سركيس، المعجم، 1/ 607.

(39) اليوسي، القانون، ص116، وانظر الرسالة في التربية الصوفية ط خ ع ر تحت رقم 612ج، ص52، والقبلي: 2/ 314.

اعتبرها اليوسي هي الأصل الأول للدخول في الطريقة، يقول بشأن ذلك ما نصه: «وقد رأينا أن نصف لكم شيئاً من كيفية الدخول في الطريق، فإنه أهم الأشياء عندكم... إن شأن المبتدي في طريق الله أن يصحح أولاً عقيدته باعتقاد الحق على طريق الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري[40] إمام أهل السنة»[41].

وتتمثل عقيدة الإمام الأشعري عند اليوسي في الاعتقاد «أن الله تعالى موجود غير معدوم، قديم غير مخلوق، باق لا يفنى، مخالف للخلق، لا يشبهه شيء، غني لا يفتقر، واحد في ملكه، لا شريك له ولا معين، قادر ومريد، بقدرة وإرادة يتعلقان بكل ممكن خير أو شر نفع أو ضر، لا تأثير بغيره تعالى في شيء، عالم بعلم محيط بكل موجود وكل معدوم، حي بحياة، سميع بصير، بسمع وبصر يتعلقان بكل موجود، متكلم بكلام يعم كل معلوم، من غير جارحة في شيء من ذلك، ولا مشابهة لمخلوق، ويعتقد أن الله تعالى له التصرف في الممكنات بكل ما شاء من إيجاد وإعدام، وإعزاز وإذلال، وتنعيم وتعذيب، وغير ذلك ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[42]. ولا يجب عليه شيء لعبيده إلا ما جعل لهم تفضلاً وامتناناً، فكل نقمه منه فضل، وكل نعمة منه عدل، ودليل ذلك كله هذه المخلوقات، فكما أن الصنعة تدل على الصانع، إذ لولا وجود الصانع لما وجدت الصنعة، كذلك المخلوقات تدل على الخالق، إذ لولا وجود الخالق لما وجدت المخلوقات، إذ لا قدرة لمخلوق على إيجاد نفسه ولا غيره»[43].

---

(40) أبو الحسن الأشعري، هو علي بن إسماعيل بن إسحاق (260 ـ 324هـ = 878 ـ 936م) مؤسس مذهب الأشاعرة. بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب. منها: الرد على الراوندي. ترجمته عند الزركلي، الأعلام. 4/ 63م. طبقات الشافعية 2/ 245. تبيين كذب المفتري لابن عساكر 128 ـ 140. والبداية والنهاية 11 ـ 187.

(41) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص7. والقبلي: 2/ 339.

(42) سورة الأنبياء، الآية: 23.

(43) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص6. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 612 ح ـ =

ويستطرد اليوسي في شرح هذه العقيدة بقوله: «لولا وجود الله تعالى لما وجد شيء من الحوادث لا نحن ولا غيرنا، ولو لم يكن قديماً لكان مثلنا. فلا يوجد شيئاً، ولو لم يكن باقياً لكان فانياً، فلا يكون قادراً ولا خالقاً، ولا إلهاً معبوداً. ولو لم يكن مخالفاً لخلقه، لكان مثلهم، فيكون عاجزاً مخلوقاً مثلهم، ولو لم يكن غنياً لكان محتاجاً إلى من يخلقه، فلا يكون خالقاً، ولو كان معه شريك في ملكه لتنازعا ـ فيقع الفساد والاختلال، كما يقع ذلك عند اجتماع خليفتين في الدنيا، أو واليين في البلاد، أو ضرتين في البيت، ولو لم يكن قادراً، ومريداً، وعالماً لما خلق شيئاً، إذ العاجز لا يخلق شيئاً، والجاهل لا يدري ما يفعل، ولو لم يكن حياً لم يتصف بالعلم ولا القدرة، ولو لم يكن سميعاً وبصيراً، أو متكلماً لكان ناقصاً، والنقص على الله تعالى محال، ولو وجب عليه شيء، أو تعاصى عليه فعل لكان مقهوراً غير مختار، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[44]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[45]»[46].

2 ـ الاشتغال بالتوبة

هذا هو الشرط الثاني للدخول في الطريقة الصوفية، ويرى اليوسي أن تصحيح التوبة يتم بأركانها الأربعة، وهي: «الأول: الإقلاع ومعناها ترك المنهي عنه، والاشتغال بالمأمور به. الثاني: الندم على ما فات من المخالفات. الثالث: العزم على عدم العودة إلى المخالفة. الرابع: رد المظالم، وهي ما لزمه من الحقوق، وهي قسمان: قسم لله تعالى ليس فيه تعلق الآدمي كالصلاة الفائتة، والصيام وكفارة اليمين، والنذر، ونحو ذلك فلا بد من قضاء الجميع

= ص، وفاطمة خليل القبلي، رسائل أبي علي الحسن اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء 2/ 319 ـ 320. تتناول هذه الرسالة ماهية التصوف، وخصائصه، وفئات المتصوفة. وآفات التصوف، والمبادئ العامة للتصوف، وانتقد اليوسي الشعوذة والذين اتخذوا التصوف تكية للارتزاق.

(44) سورة الأنعام، الآية: 61.

(45) سورة القصص، الآية: 68.

(46) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص6، والقبلي: 2/ 339 ـ 340.

وقسم ما يتعلق بالناس، كما إذا أصاب شيئاً من أحوال الناس أو دمائهم أو أعراضهم فعليه أن يتخلص من ذلك بغرم ما يمكن غرمه والاستحلال فيه وفيما لا يمكن، وقد لا يوجد صاحب الحق فليتصدق عليه بمقدار حقه، وقد لا يجد ما يعطي فينوي أن يعطي متى وجد، وقد يتعذر ذكر أصلاً، فليس إلا الالتجاء إلى الله تعالى، والإحسان إلى المظلوم بالتصدق عليه، والدعاء، والاستغفار له، والاستكثار من الحسنات، ليجد ما يعطي، والاجتهاد في التحبب إلى الله تعالى، باتباع محابه، وتجنب مساخطه، فإن المرجو من المولى إذا أحب عبده أن يفتكه من أيدي خصومه ولا يسلمه، فإذا صحح توبته فليجتهد في طاعة الله مع التزام التقوى والتبري من الحول والقوة، ولينو أنه واقف بباب مولاه خاضعاً ذليلاً فقيراً محتاجاً، منتظراً لفضله وإحسانه، فإذا كانت همته إنما هي في العبادة وطلب الجنة، فله فيما يسمع من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، وفتاوى أهل الدين ومواعظهم الكافية فيما يفعل ويترك»[47].

3 ـ التفقه في الدين

يؤكد اليوسي على أن يكون الداخل في الطريقة ملماً بأمور الفقه المتعلقة بالإسلام، والتي تعتبر الصلاة الدعامة لها، ثم الزكاة، والصوم، والحج. يقول اليوسي بشأن ذلك ما نصه: «العلم بما يُعبد الله به، فهو معرفة أحكام الفقه وأولها: الصلاة، فلا بد من معرفتها بفرائضها وسننها، وآدابها، وما يفسد وما يجبرها، ومعرفة مقدماتها من وضوء وتيمم، وغسل، وستره عورة، ودخول وقت، واستقبال، وهكذا الزكاة في حق من له ما يزكى إن لم يتوله العامل. والصيام، والحج في حق من يفعله، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[48]، وقال ﷺ: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[49]، وقال

(47) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص7، والقيلي، 2/ 341 ـ 342 ـ 421.

(48) سورة التوبة، الآية: 122. وبقية الآية: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

(49) رواه ابن عدي في «الكامل» والعقيلي في الضعفاء، والبيهقي في شعب الإيمان، وابن عبد البر في العلم عن أنس مالك، وهو حديث موضوع.

ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[50]، وقال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم»[51]، وكما يجب عليكم أن تتعلموا ما أمرتم به لتفعلوا، كذلك يجب عليكم أن تتعلموا ما نهيتم عنه كالسرقة، والغضب، والزنا، والربا، والكذب والزور، وغير ذلك لتتركوه، ومجموع ذلك هو الفقه المطلوب»[52].

4 ـ الأدب الصوفي

يحث اليوسي الداخلين في الطريقة «بالتناصح والتآلف على الخير، والتعاون على البر والتقوى»[53] ويحذرهم من «التدابر والتقاطع والتحاسد والتعصب على الباطل، وإياكم واتباع كل ناعق، فقد اتسع الخرق من الدين بكثرة المعتدين والمبتدعين والمدعين»[54].

بهذه المبادئ الأساسية الأربعة للتصوف وهي، تصحيح العقيدة، والاشتغال بالتوبة أو إصلاح القلب، والتفقه في الدين، والأدب الصوفي، يتم الدخول في الطريقة الصوفية واليوسي ينبه ويحذر جمهور السالكين في الطريقة إلى أهم عدوين للتصوف هما البطالة والتسول.

المبحث الثالث: آفات التصوف عند اليوسي

انتشرت الطرقية في عصر اليوسي بشكل متسع حتى أصبح التصوف تكية ووسيلة تستخدم للارتزاق، ولهذا يحذر اليوسي من البطالة بقوله: «ولا تركنوا

---

(50) جزء من حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عبد البر عن أنس. وهو ضعيف، انظر السيوطي، رقم 3627. وفي الجامع الصحيح للسيوطي رقم 3809.

(51) جزء من حديث رواه البخاري 2/ 30 في العلم. باب العلم قبل القول أو العقل عن ابن عباس رضي الله عنه.

(52) اليوسي، الدلالة الوافية في الرسالة الأسفية، ط خ ع ر تحت رقم 302ق. ص335 ـ 336. والقبلي: 2/ 420 ـ 421 تتناول هذه الرسالة نصائح وجهها اليوسي إلى ثغر أهل أسفي.

(53) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص336، والقبلي: 2/ 421.

(54) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص337، والقبلي: 2/ 421.

إلى البطالة والغرور، كما وقع لأكثر من يتسمى بالفقر في هذا الزمان. نسأل الله العافية والتوفيق»[55].

ولهذا يرى اليوسي أن النية والمحبة إذا لم يصحبهما العمل الصالح لا فائدة منها، يقول في ذلك ما نصه: «. . . أن النية إنما سرها في العمل، فإذا لم يكن العمل فلا نية، والمحبة إنما امتدحت لاجتذابها المحب إلى اتباع المحبوب والتشبه به، والانخراط في سلكه، فإذا لم يكن منه شيء من هذا فمحبته ليس لها كبير فائدة لأنها ناقصة قد غلب عليها محبات أخرى من الشهوات، والكسل لم يبق لها حكم»[56].

وحذر اليوسي كذلك من التسول، ونهى عنه، وذلك بقوله: «وأحذرهم ـ يقصد الداخلين في الطريقة والمنتسبين إليها ـ غاية التحذير من السبب الذي يتعاطاه أكثر أبناء المنتسبين من تكبد الناس والطمع في أموالهم، فإنه العار والفقر الحاضر، ولاسيما مع الطوفان على المحلات والقبائل، فنعوذ بالله من هذه الحرفة»[57].

وفي معرض حديثه عن كدح الناس وسعيهم، تعرض اليوسي لطالب الدنيا من غير أبوابها، قاصداً المتسول، وذلك بقوله: «. . . وإن كان ذلك بالسؤال والتكفف فهو مهانة وسخافة، وسقوط همة، وصاحبها مع ما يعاني من التكلف واقتحام الشبهات وغير ذلك من القبائح الدينية والدنيوية، مُسقط لمروءة، مُهين لنفسه وهو يظن أنه يكرمها»[58].

(55) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص337، والقبلي: 2/ 421.

(56) المصدر السابق، ص337، 2/ 421.

(57) اليوسي، الرسالة الوصية مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 950ق، ص253. والقبلي 2/ 372. يوجه اليوسي في هذه الرسالة جملة من الوصايا إلى أولاده، كما يوضح واجب المتصوفة نحو المسالك، ومعنى الزاوية ومال الزاوية وكيفية صرفه، وحذر المنتسبين من الطمع، وصنف الناس في كدحهم إلى أربعة، ونهى عن التسول.

(58) اليوسي، الرسالة الوصية ص254. والقبلي، 2/ 374.

اعتبر اليوسي أن البحث عن مهنة التسول هو «حمق منشؤه شدّة الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والتشوف إلى كثرتها، والطمع في استعجالها مع الفوز بالراحة عن الكد في أسبابها، والاغترار بما يسمع من نوادر من ظفر بشيء من ذلك في الدهور الماضية، مع لوع النفس بالأمور الغرائب، وهي حرفة خسيسة، صاحبها لا يفلح، ولا يموت غالباً إلا حملقاً فقيراً من الدين والدنيا، إلا أن يتداركه الله برحمته»[59].

ويطلق اليوسي على المتسولين لفظ «الكُدية»[60] التي انتشرت في عصره بشكل رهيب، يقول في ذلك ما نصه: «واشتهرت الكدية حتى صارت حرفة لأقوام يعيشون بها، ويتألفون عليها، ويتحزبون، ويتعاطون فيها آداباً وحيلاً، ويتوارثونها حتى إنه من غرائب الأمر ما ذكر حجة الإسلام الغزالي أنه رب قوم منهم يكونون عمياً فيعيشون فيها، فإذا ولدت لهم الأولاد أعموهم لتتفق لهم تلك الحرفة نعوذ بالله تعالى من البلاء»[61].

المبحث الرابع: شيوخ التصوف عند اليوسي

ينقسم الشيخ في الدين إلى ثلاثة: شيخ تعليم، وشيخ تربية، وشيخ ترقية، ولكل شيخ وظيفة يتميز بها عن الآخر، يقول اليوسي بشأن ذلك ما نصه: «الشيخ في الدين ينقسم إلى ثلاثة: شيخ تعلم، وشيخ تربية، وشيخ ترقية. ولكل شروط مفصلة عند أهلها لا نطيل بها إذ لم نضطر إليها، ولكن نذكر ما يتميز به كل واحد من خاصة فنقول: شيخ التعليم من وظيفته الإخبار بالحكم، وتبيينه بما يحتاج من البيان وهو لجميع المكلفين عامهم وخاصهم.

(59) المصدر السابق، ص253، 2/ 373 ـ 374.

(60) كلمة مأخوذة من قولهم «حفر الحفار فأكدى إذا انتهى في حفره إلى كُدية تصعب، فقيل للسائل مكد، لأنه يلح في السؤال ولا محالة ينتهي إلى التكلف إما البخل والمنع وإما المشقه» اليوسي، الرسالة الوصية، ص256، والقبلي 2/ 276.

(61) اليوسي، الرسالة الوصية، ص256، والقبلي، 2/ 376.

وأما شيخ التربية وشيخ الترقية فهما لخاصة السالكين. أما الأول: فيدرج المريد في طريقة ويعالجه بما يصلح به في حاله. وأما الثاني: فيتوجه إلى الله تعالى في صلاحه ويحيل عليه همته في ذلك فينتفع. وتوضيح ذلك بالمثال أن المريد لو وجد في نفسه صفة كالكبر مثلاً فإن شيخ التعليم يخبره أنها من المحرمات المهلكات. وشيخ التربية يأخذ معه في معالجتها لتزول بعلاج يصلح به على ما يجده ببصيرته النورانية، وفراسته الربانية كأن يأمره مثلاً بحزمة حطب يحملها، ويشق بها الأسواق ومجامع المعارف كما كان السيد أبو هريرة[62] رضي الله عنه يفعله اختياراً لنفسه، أو يأمره بحلق رأسه، وتعليق مخلاة الجوز كما قال أبو يزيد[63] لصاحبه أو يخدمه، أو يلقنه ذكراً أو دعاءً أو غير ذلك. وشيخ الترقية ينبه على الطريق والأدب ويتوجه إلى الله تعالى في أن يظهره منها بحوله وقوته، فيربيه بهمته، وقد يحصل له بمجرد ملاحظته أو مخاطبته ما لا يحصل بالتربية دهراً طويلاً. وقد تجتمع هذه الأمور في واحد فيعلّم ويربّي ويرقّي، وهو الكامل. وقد يكون اثنان بأن يعلّم ويرقّي بهمته وهو الذي يبقى في زماننا.

فقد نص شيوخ الطريق على انقطاع التربية، المصطلح عليها منذ زمان وكرهوا السلوك بها، واعلم أن هذه الأحوال الثلاثة مأخوذة من حال النبي ﷺ، فهو أصلها لأنه ﷺ على أكمل وجه»[64].

ويأخذ اليوسي في تحليل مفهوم الشيخ على عهد نبينا محمد ﷺ فيقول:

---

(62) هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر (21 ق هـ ـ 59هـ = 602 ـ 679م). صحابي، من أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له، ولزم النبي ﷺ فروى عنه 5374 حديثاً. ترجمته عند: عبد الحسن شرف الدين «أبو هريرة» كتاب في سيرته.

(63) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي. زاهد مشهور. نسبته إلى بسطام بين خراسان والعراق. ترجمته عند: طبقات الصوفية 67: 74. وفيات الأعيان: 1/ 240. حلية الأولياء: 10/ 33. طبقات الشعراني: 1/ 65.

(64) اليوسي، الفهرسة ص40 ـ 41 ـ 42.

«أما التعلم فهو واضح، وهو ظاهر الشريعة وأصل البعثة، وأما التربية فقد كان يربي أصحابه بالأذكار المختلفة، والأدعية المختلفة، والوصايا المختلفة كلاً بما يصلح به، فيقول للواحد: لا تغضب، ويقول للآخر: أن تموت ولسانك رطب يذكر الله، وأما الترقية فواضحة أيضاً فقد كان الرجل فاجراً أو بنفس مشاهدة طلعته الجميلة الكريمة يخشع ويطمئن بالإيمان وينور قلبه لذلك. قالوا ما نفضنا أيدينا عن التراب من دفنه ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا، ومعرفتهم الزيادة والنقص دليل الصفاء بصحبته ﷺ، وها هنا لطيفة: وهي المطلوب من العبد المتواضع بأن يضع نفسه لما يعلم من خستها حتى يراها دون كل مخلوق. قال بعض المشايخ: فإذا دام له هذا النظر وثبت له هذا المقام أثمر له انفتاح بصيرة الاعتبار حتى أنه متى نظر إلى شيء من المكونات اعتبر به واستفاد منه علماء، فلا تحصى أشياخه وذلك أن المدد يسري من المكونات إليه، كما أن الماء إذا نزل من السماء فهو يجري إلى المكان السافل، وهذا معنى مطروق استعمله الأدباء في أشعارهم وهو بين. وعرضنا بيان نوع آخر من الشيخوخة وهو الإفادة على الإطلاق من حي أو جماد، أو جوهر أو عرض، وإلى هذا المعنى أشرنا في صدر هذا البحث، وهو أن كل من أفادك بقوله وفعله أو حاله فهو شيخك»[65].

يرى اليوسي أن الإنسان عندما يذكر أشياخه فإن غرضه من ذلك يجب أن يكون متضمناً لثلاث فوائد هي: معرفة سند الرواية والطريقة، والشكر يكون بذكر الإحسان وذكر الفوائد الحاصلة معهم، يقول اليوسي في ذلك ما نصه: «ذكر الإنسان لأشياخه وتنويهه بهم يكون الأغراض، والمهم منها ثلاثة:

الأولى: أن يعرف سنده في الرواية، وطريقته في العمل والسيرة وهذا مخصوص ممن كان من أهل العلم أو العمل أو الحال لأن يقتدى به فيه لتثبت السنة وتعرف الطريقة.

الثاني: الشكر والمكافأة بذكر الخير ونشر الإحسان، وقد ورد من أسدى

(65) المصدر السابق، ص42 ـ 43.

إليه معروفاً فذكره فقد شكره، وأن من كتمه فقد كفره. وإذا كان هذا في النعم الدنيوية الخسيسة الفانية فما بالك بنعمة العلم والحال التي هي شرف الدنيا والآخرة، وهذا لا يختص بالقدرة بل كل من حصلت منه مسألة تعين شكره. فإن مسألة واحدة من العلم أشرف من الدنيا وما فيها بل لا مناسبة أصلاً.

الثالث: ما يستدعي ذكرهم من ذكر الفوائد الحاصلة معهم، وهذا أيضاً لا يختص»[66].

المبحث الخامس: التربية الصوفية

التربية الصوفية هي مجاهدة النفس وإبعادها عن شهواتها، ويرى اليوسي أن هذه التربية يمكن الوصول إليها بطرق، منها:

مصاحبة شيخ صالح، ويشترط اليوسي على المريد أن يحترم الشيخ، ويلتزم أوامره ونواهيه، وأن يشاوره، وأن يصاحبه، ولا يتخلى عنه، ولا يكتم عنه شيئاً، وأن يكون متأدباً معه، وهذا ما ينطق به اليوسي صراحة بقوله: «فإن ظفر المريد بشيخ تربية فهو تابع له على طريقته، وأدبه معه أن يلتزم طاعته واحترامه، وتوقيره وإكرامه، وتفضيله على غيره من أهل عصره، وتخصيصه بالصحبة، ومشاورته في كل ما يأتي وما يذر، والرجوع إليه في كل ما ينويه. وأن لا يكتم عنه شيئاً من أحواله رفيعة أو خسيسة، وأن يصدقه ولا يظهر له من صلاح أو صدق، أو اعتقاد ما ليس فيه، وأن لا يتعدى أمره، وأن يبادر إلى فعل ما أمره من غير تراخ ولا توقف ولا تأول، ومن الواجب أن لا يدخل في يده حتى يعلم أنه على الصراط المستقيم، إما بالمحافظة أو بمشاهدة أهل الحق، وحتى يجد له في قلبه مع ذلك نية صالحة واعتقاداً وحرمة، فإذا اجتمع له ذلك ودخل في يده لم يبق له معه «إلا الإذعان والتسليم والاعتقاد الجميل، والنظر إليه بعين الرضا في كل شيء، واستحسان كل ما يبرز منه وإن خالف

(66) اليوسي، الفهرسة، ص43.

عقله هو، أو خالف العادة، ومتى رأى منه ما يكره له وجهاً من التأويل، فإن عجز أحال بالقصور على نفسه، واعتقد أن له وجهاً حسناً في نفسه، وإذا كان هذا حقه مع سائر الإخوان وسائر المؤمنين، فكيف مع الشيخ.

وليتأدب معه الأدب البالغ، فلا يطأ سجادته، ولا يجلس في مكانه، ولا يلبس لباسه، ولا يتزوج زوجة طلقها أو مات عنها، إلى غير ذلك من كل ما يستحسن شرعاً أو عادة، ما لم يأمره الشيخ من ذلك أمراً جائزاً، فيفعل، وإلا قدم الأدب على الأمر، ولا يتشوف إلى ذلك، ولا يطلب من الشيخ شيئاً من ذلك وربما ساعفه الشيخ بشيء من ذلك، وهو المكر الذي يهلك معه المريد، فإن أحس بشيء من ذلك فليبادر بالتوبة والتنصل، ولا يعترض عليه بلسانه ولا بقلبه في شيء، ولا يطلب منه سبب كلامه، ولا وجه صحته ولذلك قالوا: من قال لشيخه لِمَ؟ لا يفلح أبداً»[67].

ويزيد اليوسي في تقرير آداب المريد بقوله: «ولا يترقب منه أن يكرمه ولا أن ينزله أو يعدمه في المجلس، أو ينظر إليه أو يضحك في وجهه، أو يسأل عنه أو يعطيه شيئاً من منافع الدنيا، كانت ما كانت، بل يعتبر نفسه عبداً له، مملوكاً خسيساً، هو المطلوب بالحقوق والآداب كلها في حق سيده، وليس له هو أن يطلب شيئاً من ذلك، وكلما فعله به الشيخ من إبعاد وإهمال أو إعراض، فليعتقد أولاً أن ذلك قدره لسقاطته في نفسه وخساسة همته، يعتقد ثانياً أن الشيخ لم يفعل به إلا ما هو الأصلح في حقه، ولا يتهمه، ومتى قرّبه أو أكرمه أو أثبت له مزية، فلا يتعاظم بذلك ولا يتّهم نفسه باستحقاق ولكن يرجو ويخاف. أما الرجا فلأنه عسى أن يكون الشيخ لم يقرّبه حتى قرّبه الله إليه، فإن إقبال قلوب المشايخ على الإنسان من علامة السعادة. وأما الخوف فلأنه ربما كان مكراً، وربما كان علامة على أن الشيخ لم ير له نفاذاً

(67) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص7، والقبلي، 2/ 344 ـ 345.

في الطريق، ولذلك عامله معاملة أبناء الدنيا من المدارة والإجمال، نعوذ بالله من الحرمان»[68].

وفي حالة عدم وجود شيخ يرى اليوسي بأنه يمكن الاستعانة بأخ صالح، وفي ذلك يقول: «وإن لم يظفر بالشيخ في الحال فليستعن بأخ صالح، ناصح، عارف إن وجده، ويلزمه معه الإنصاف والإكرام وحسن الظن»[69]. وهناك حالة ثالثة بواسطتها يمكن الوصول إلى التربية الصوفية، وهي الوقوف ببابه تعالى، يقول اليوسي بشأن هذا ما نصه: «وإن لم يجده (يقصد الأخ الصالح) فليقف بباب الله بصدق التوجه وملازمة اللجاء والاضطرار كما تقدم، فإن الله بفضله إذا علم منه صدق الطلب، وصحة التوجه إليه هاديه ومُرشِدُه، إما على يد شيخ يُلقيه به حي أو ميتٍ، أو يمده من ظهر الغيب، أو على يد النبي المصطفى ﷺ، أو يمنحه بغير واسطة والله ذو الفضل العظيم»[70].

الخاتمة: خصائص تصوف اليوسي

من خلال الصفحات السابقة نستطيع القول بأن تصوف اليوسي قد اختص بالخصائص الآتية:

1 ـ نبذ التصوف المتزمت المتغالي الذي لا يراعي مشاعر النفس الإنسانيةُ وما تحتاجه من متطلبات دنيوية ضرورية، وبهذه الخاصية نجد اليوسي قد أعطى للتصوف طابعاً سنياً، يقول بشأن ذلك: «ليس من شروط السالك أن يتجرد عن أسباب الدنيا رأساً بل أن يوجه قلبه وقالبه إلى الله، ويشتغل بما يُرْضي الله من حيث يَرضَى. أما التجرد والتسبب فحالان من أقيم في واحد منهما، وقام فيه بالحق الواجب فلا بأس عليه»[71].

(68) المصدر السابق، ص7و 2/ 344 ـ 345.
(69) المصدر السابق، ص8، 2/ 345.
(70) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص8. والقبلي، 2/ 345 ـ 346.
(71) اليوسي، رسالة النصيحة الغيائية، ص5، والقبلي: 2/ 334.

وبهذا نجد أن اليوسي قد تأثر بكتاب الإحياء للإمام الغزالي[72]، والذي درّسه له شيخه ابن ناصر[73]، كما تأثر بمنهج الطريقة الشاذلية ورجالات التصوف من أمثال الجنيد[74]، والبسطامي[75]، وأحمد زروق[76] وغيرهم.

2 ـ أقرّ مبدأ الجذب الصادق، والسماع المضبوط، ولكنه اعتبر المجذوب ليس «هو كل من ترونه قد ذهب عقله، فقد يكون ذلك من حمق، أو مَسّ جنّ، أو وسواس أو نحو ذلك، ولا نصيب له في الطريق، ولا كل من يتحرك لوارد حب أو خوف أو غير ذلك، ولا يضبط نفسه، وإن كان الوارد ربّانياً كما جرى عُرْفُ العامة بإطلاق هذا الاسم عليه، فإن المجذوب هو الذي قطع المنازل، واستحصل المقامات[77] وحصل له الوصول[78] فهو من أولياء الله»[79].

أما السماع أو الحضرة فقد وضع اليوسي لها شروطاً، وبذلك خرج اليوسي من قائمة الفقهاء المتشددين الذين أنكروه، فاعتبر السماع: «ليس من

---

(72) سبقت ترجمته.

(73) ابن ناصر الدرعي محمد بن محمد (1085هـ = 1674م) من صلحاء المالكية في المغرب كانت له زاوية وأتباع كثيرون. وهو الممدوح بالقصيدة الدالية التي قالها اليوسي فيه. له فتاوي في الفقه، وفهرسته لشيوخه7 والأجوبة الناصرية، ترجمته عند: الإفراني، صفوة من انتشر، ص173. محمد مخلوف. شجرة النور. 313.

(74) سبقت ترجمته.

(75) سبقت ترجمته.

(76) سبقت ترجمته.

(77) المقامات هي مكاسب يصل إليها السالك بالصبر والمجاهدة، والحكيم الترمذي يرى أن المقامات أربعة مقام الصادقين، والصديقين والمقربين، والمنفردين (د. عبد الفتاح بركة، الحكيم الترمذي ـ نظرية الولاية، ص254) والإمام الشعراني عدد المقامات التي ينبغي على السالك أن يمر بها حتى يصل مقام المنفردين، 249999 درجة روحية، وكي يجتازها المريد الصادق عليه بالصبر والطاعة والإخلاص لله. الإمام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ج1، وحسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ص116.

(78) الوصول هو إدراك الفائت كما يقول محي الدين بن عربي، انظر، دكتور حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ص286.

(79) اليوسي، رسالة النصيحة الغيائية، ص5، والقبلي: 2/ 333.

فروض الدين ولا من سننه، وإنما هو رخصة لأهله عند توفر شرائطه، بحسب الزمان، والمكان والإخوان، وبحسب المُتعاطيه في نفسه، فقد يكون مغلوباً، وقد يكون متمكناً يريد تدريج غيره، وقد يكون مساعداً للغير حيث تنبغي المساعدة عندهم، وشرح جميع ذلك لا تفي به هذه البطاقة. وحاصل الأمر أن السماع منهل مورود قديماً وحديثاً، ولكنه قد يصفو، وذلك لأهله، فيستريحون به من الأثقال ويستفيدون به نفائس الأحوال»[80].

3 ـ تميز تصوف اليوسي بالتواضع وذلك بقوله: «وها أنا أشهد الله وأشهد ملائكته والمؤمنين من عباده أني لا أجْعَلُ لنفسي مدخلاً في هذه الطريقة الفاضلة.. اللهم إلاّ بمحبتها والإيمان بها. وإنما أنا من عوام المسلمين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ. فإن تفضل الله بإلحاقي بهم بمحبتي فيهم فضلاً منه وإحساناً، فكما قال ﷺ: «المرء مع من أحب»[81] فمن أولى منه بالفضل والكرم، وإلاّ فإن توفانا الله على ملّة الإسلام فذلك خير كثير لا نقدّر قدره ولا نحصي شكره»[82].

وبهذا يعترف اليوسي بأنه ليس له طريقة خاصة، صحيح كانت له زاوية خاصة به، لكنه لم ينسب شيئاً لنفسه، وإنما يرجّعه إلى أشياخه مثل ابن ناصر، يقول في هذا الشأن ما نصه: «بعد وفاة الأستاذ المحقق السني أبي عبد الله بن ناصر، لم نزل نسعى في نفع الناس بتعليم ما يحتاجون إليه من دينهم، وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار التي يتزودون بها لمعادهم ويتحببون بها ويتقربون إلى ربهم عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة، لا على وجه المشيخة، وعلى وجه التعليم والإرشاد، لا على وجه التربية»[83].

---

(80) اليوسي، رسالة في السماع ط خ ع ر تحت رقم 302ق. ص192. والقبلي: 2/ 430.

(81) سبق تخريج الحديث.

(82) اليوسي، النصيحة الغيائية، ص11 ـ 12. والقبلي: 2/ 358.

(83) اليوسي، المحاضرات في الأدب واللغة. تحقيق وشرح محمد حجي. وأحمد إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402هـ ـ 1982م. ص2/ 434.

4 ـ حثّ اليوسي على الإخلاص في التصوف، وجعله لله، لا طلباً للرياء، يقول بشأن ذلك: «فكذا الفقير إذا أراد بتوبته وصحبته الصالحين، الله والدار الآخرة، فهجرته إلى الله ورسوله وهي مقبولة، وإن أراد حظاً آخر من الدنيا، كتربية الجاه عند الناس، أو اتخاذ زاوية، أو استجلاب هدية، أو تعزُّز بالطريق، أو ظهور بكرامة، أو قهر عدو ببرهان، أو كفاية معاش، أو نجاة من محن الدنيا أو تكاليفها، أو نحو ذلك، فقد ضاع سعيه، فإن هذه كلها شهوات تعوق عن المراد وتنافي الإخلاص الذي هو المطلوب من العباد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[84]. وهو معنى لا إله إلا الله، أي لا معبود بالحق إلا الله، فكل من توجه إلى غيره، فقد عبده وصيّره إلهاً من دون الله. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[85]. فسمي الهوى إلهاً حيث كان متبوعاً لأنه في معنى العبادة، والعبادة خاصة الإله.

وكذا كل من تشوف إلى حال، أو مقام، ولذا قال أئمة الطريق لا يصل حتى تنقطع عنه شهوة الوصول. أي انقطاع أدب لا انقطاع مَلَل. ويتجه لنا فيه كلامٌ ليس هذا محل بيانه. فالمطلوب للعبد أن يعمل لله خالصاً. إقامة لرسم العبودية، وقياماً بحق الربوبية، وعسى أن يرفعه الله عن ذلك إلى أن يعمل بالله فانياً عن نفسه واحتيالها، وهو الإخلاص الكامل، رزقنا الله وإياكم الحظ الوافر بمنّه وكرمه»[86].

وبهذه الخصائص نجد اليوسي قد جعل التصوف السني السليم يعتمد على النية الخالصة لله، ومحاربة التدليس والاستغلال والأفكار الهدامة والخرافات، إنه العالم الجدير الذي يجب أن تُدْرس مؤلفاته، وتقام له ندوة سنوية تقديراً وعرفاناً لمجهوداته في خدمة العلم.

---

(84) سورة البينة، الآية: 5. وبقية الآية: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

(85) سورة الجاثية، الآية: 23، وبقية الآية: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

(86) اليوسي، رسالة النصيحة الغياثية، ص12، والقبلي، 2/ 159.

أولاً: المصادر المخطوطة

1 ـ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي. **الفهرسة** مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1234 ك ضمن مجموع 103 إلى 147.

2 ـ **القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1304ج 2382د.

3 ـ **حاشية على عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد**. مخطوطة خزانة القرويين تحت رقم 1400.

4 ـ **الرسالة الكبرى أو رسالة جواب الكتاب**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2753د.

5 ـ **رسالة النصيحة الغيائية**. مخطوط بالخزانة بالرباط تحت رقم 612ج. ضمن مجموع.

6 ـ **الرسالة إلى بلد أهل كارت**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 302 ق. ضمن مجموع 34 إلى 347.

7 ـ **الدلالة الوافية في الرسالة الأسفية**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 302ق. ضمن مجموع من ص 333 إلى 338.

8 ـ **الرسالة الوصية**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 950ق ضمن مجموع من ص248 إلى 262.

9 ـ **رسالة في التربية الصوفية**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 302ق ضمن مجموع من ص222 إلى ص224.

10 ـ **رسالة في التربية الصوفية**. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 612ج ضمن مجموع من ص49ظ إلى 52 ر.

ثانياً: المصادر المطبوعة

1 ـ **القرآن الكريم**.

2 ـ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي. **المحاضرات في الأدب واللغة**. تحقيق محمد حجي، وأحمد إقبال. مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982م.

3 ـ فاطمة خليل القبلي، **رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي**، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الطبعة الأولى. 1401هـ ـ 1981م.

4 ـ محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. 1409هـ ـ 1989م.

5 ـ محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق د. محمد حجي، أحمد التوفيق. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط.